القطـــن

قديمـا فـي مصـــــر

محمد فهمي عبد الباقي

هدف هذا المقـال بحث مدى معرفة مصر القطن قديما ، حيث كان من الشائع المعروف حتى وقت قريب أنها لم تعرفه زراعة أو صناعة أو تجـارة ، وهذا على الرغم من رصيدها الحضارى الهائل ، ومساهمتها الكبيره فـــى تجارة العالم القديم ، وخاصة أن الحضارات الأخرى عرفته بشكل مـــن الاشكال (١).

وأقدم ذكر للقطن ورد من الهند ، التى اعتبرها الدارسون الموطـــن الأصلى له ، وقد أثبت ذلك الأثريون ، حيث عثروا على عقود وخرز فى جرة فضية ، وكانت هذه الأشياء ملفوفة بقطعة قماش قطنى فى موهنجو دارو Mohenjo Daro ، مؤرخة فى وقت مبكر جدا من تاريخ الحضارة الهندوسية ، التى بذغ تاريخها فيما بين عامى ٣٢٥٠ ــ ٢٧٥٠ ق.م .

----

(1) Forbes , R. J. Studies in Ancient Technology . Vol IV Leiden , 1956. p . 45 ; Prentice, A.N. Cotton with Special Refrence to Africa. London, p.1.

ثم يأتي دليل أدبـــي ، وهو عبارة عن ترنيمة هندو رجيفيد ا Hyndo Rigvenda التي تؤرخ بالقرن الخامس عشر ق٠م ، التي ورد فيها ذكـــر أن خيوطه في النول ، ثم قوانين مانو المؤرخة في القرن الثامن عشر ق٠م ، والتي تبين استخدام القطن في صناعة الخيط المقدس للبراهما ، وهـــذا يؤكـــد وجود القطن ، وزراعته وتطور صناعته في هذا الوقت ، ومن قبلـــــه بزمن طويل (٢)

وكذلك أيضا نجد أن المؤرخ اليوناني هردوت (٤٨٤ ـ ٤٠٢ ق٠م) كتب قائلا أنه " توجد أشجار تنمو بالطبيعة هناك ـ يقصد الهند ـ ثمارهــــا هو الصوف ، الذي يزيد جماله وجودته عن صوف الأغنام " (٣).

---

(2) Forbes ,op.cit. pp.43,44; Goossens,G. Le Cotton en Assyrie . Annuaire de L institut de Philologie et d'Histoire Orientales et Slave . 12(1952)p.173, Greiss E.A.M.Les plus anciens specimens de tissus et de Fibres de Cotton decouverts en Egypte. Chron. d'Eg. 53(1952)p.321; King,L.W.

τὰ δὲ δένδρεα τὰ ἄγρια αὐτόθι φέρει καρπὸν εἴρια καλλονῇ τε προφέροντα καὶ ἀρετῇ τῶν ἀπὸ τῶν ὀίων·

ثم يأتى ثيوفراتس (٣٥٠ق٠م) ، فيعطينا أول وصف عن زراعـــة القطن فى الهند حيث كتب " ان الاشجار التى يصنع منها الهنود الملابس ، لهـا أوراق تشبه أوراق شجر التوت ، لكن النبات كله يشبه شجر الوردة البلديـــة، يزرعونه فى صفوف منتظمه فى السهول ، حتى أنها تبدو من بعد كرما "٠

An Early mention of Cotton . Proceedings of the Society of Biblical Archaeology . 31(1909) p. 341 ; Lucas, A. Ancient Egyptian Materials and Industries .4 th. ed. London, p.147; Mackey , E. Early Indus Civilization. London 1948 pp .82,105,131,133; Watt, G.The Commercial Products of India, London, 1908 pp.570,571.

ويزيد على ذلك قوله أن القطن يمكن أن تراه في الهند وبلاد العرب ، و أن القطن الهندي يحمل حبوبا تستخدم في الزراعة في صفوف أساسية . لكـــــن يبقى د ائما نباتا سنويا (٤) . وقد كتب نيرخوس Nearchus قائد بحرية الأسكندر الأكبر ، عن حملته على شواطيء جنوب آسيا حوالـــــــى عام ٣١٧ ق .م تقريبا ورد فيه " توجد أشجار في الهند تحمل باقات من الصوف يصنع منه الوطنيون ملابس كتانيه (يقصد قطنية) ، لابسين قمصانـــــا تصل الى منتصف الساق ، وملاء ات تغطي الأكتاف ، وعمامات تلف الـرأس والكتان (القطن) خاصة ناعمة ، وأكثر بياضا من أيشيء آخر (٥) .

انتشرت تجارة المنسوجات القطنية من الهند غربا ، حتى أننا عثرنـــــا على قطعة قماش قطني في العراق مختومة بخاتم وادي الهندوس ، جــــــرى اكتشافها من عصورها السابقة على عصورها التاريخية (٦) . لكن الذي أدخـــل

---

(3) Herodotus , VII. 65. III. 106 .

(4) Theophratus , Hist. Plant.IV.4,8.7.8. IV . 132.

(5) Nearque,Strab.XV.11 20; X III 25 .

زراعـة القطــن فى العراق هو الملك سنخريب Sennacherib وذلك فيما بين عامى ٧٠٠ ــ ٦٩٤ ق٠م ، ولم يزرع فى العراق قطنا قبــل هذ ا التاريخ (٧) .

كتب هيردوت أن المصريين " ليسوا ثيابا من الكتان محلاة بهد اب حـــــول الساقين يسمونها كالاسيريس ، ويلبسون فوقها إحزمة من الصوف الأبيـــض تتسدل على الكتف ، ولكنهم لايلبسون الملابس الصوفية عند ذهابهم الــــــى المعابد ، ولايدفنــون بها (الملابس الصوفية) ، لأن الدين يحـــــرم ذلك " (٨) . وذكر فى موضع آخر أن ملك مصر امازيس Amasis (المتوفى عام ٥٢٥ ق٠م) ، أهدى فى ساموس Samos ولندوس Lindos درعين للصدر ، كان فى نسجهما كثيرا من الحيوانـــات ، وزخرفة فضفاضة من القطن ، وكان النسيج القطنى رقيقا بدرجة أن الخيـــوط

---

(6) Hatton , J.H. Caste in india , Cambridge 1946 , p.135; Forbes,op.cit. p.44.

(7) King , op.cit pp. 339-343.

(٨) هيرودوت يتحدث عن مصر ــ القاهره ١٩٦٦ ــ ف ٨١

المستخدمه كان الواحد منها يتكون من ٣٦٠ فتلة . (٩).

وعلى الرغم مما كتبه هردوت ، والتى تظهر معرفة المصريين بالقطن ونسيجه ، الا اننا بفحص الرسومات والمنحوتات المصرية القديمه ، نجد أنها خلت من أي اشارة الى القطن ، بينما تظهر اهتمامهم بزراعة الكتان وتنظيف شعره (١٠).

ثم كتب بلينيوس الاكبر (٢٣/٢٤ ـ ٧٩م) " أنه فى الجزء الأعلى من مصر فى اتجاه اقليم العرب ، يوجد شجر يسمى غالبا جوسيبيون Gossypion وفى كثير من الأحيان Xylon ، وتسمى الملابس المصنوعة منه Xlyines ، ولايوجد مثله أى نسيج آخر فى ليونته وبياضه وسهولة ندفه ، ولذلك كان الكهنة المصريون يستحبون صناعة ملابسهم منه " (١١).

----

(9) Herodotus, III, 47 .

(10) Griffith, F.LL.and Mrs. Crowfoot,G.M. On early use of Cotton in the Nile Valley . JEA .,XX. (1934)p.5.

Superior pars Aegypti in Arabiam uergens gignit fruticem quem aliqui gossypion uocant, plures xylon et ideo lina inde facta xylina. Paruus est similemque barbatae nucis fructum defert cuius ex interiore bombyce lanugo netur. Nec ulla sunt cum candore molliora pexioraue. Vestes inde sacerdotibus Aegypti gratissimae..

على الرغم مما كتبه بلينيوس الأكبر ، الذى أوضح لنا معرفة المصريين للقطن ، واستخدام الكهنة له ، عكس ماكان سابقا ، الا أننا لم نجد مايؤيده فى المصادر العادية ، بل لم يوجد له اسما فى اللغة المصرية القديمة ، وما يدل على منتجاته ، واستمر الحال على هذا المنوال ، حتى بعد عام ١٩١٢ م بعدة سنوات ، حيث عثر الأثريون على قطعة نسيج من مروى مؤرخة بالعصر المروى (المساوى للعصر الرومانى فى مصر) ، جرى فحصها ، ووجدت مصنوعة من القطن ، وكان ذلك دافعا للبحث عن القطن

---

(11) Pline L'Ancien, Hist. Nat. Traduit et Commenté par J.Andre.Paris 1964.XIX.14.

مرة أخرى في المنسوجات ، التي تم العثور عليها ، وجرى ارسال عينة مكتشفة حديثا الى معهد شيرلى لبحوث القطن Shirley Institute في مانشستر ، بواسطه السيد/ ب ٠جن B. Gunn أ مين قسم المنسوجات في متحف بنسلفانيا ، وأحد المهتمين بأصول القطن ، وقام بفحص العينة خبير المنسوجات أ٠ ج تيرنر A. . Turner وهو خبير المنسوجات القديمة المكتشفة في الهند ، وخاصة المكتشفة في موهنجودارو Mohenjodaro ، أقدم المناطق المكتشف فيها منسوجات قطنية ، الذى خلص الى نتيجه هى " أن عينات القماش القطني الوارد من النوبة هى من النوع الخشن جد ا ، وتشبه الأنواع البرية ، التى وجد ت فى أماكن أخرى من العالم ، وأن القطن المصنوع منه المنسوجات المأخوذ منه العينه قطن نوبى محلي " (١٢).

---

(12) Griffith and Crowfoot , op.cit.pp.5-7.

وبالبحث الجاد فى المجموعات البردية المنشورة فيما بين عامى ١٩٠٧ م و ١٩٨٦ م ، تم العثور على ست وثائق [١٣] سنتناولها تبعا لترتيب نشرها . تتصل بصناعة وتجاره وزراعة القطن فى مصر .

اقدم هذه الوثائق الست هى: P.Lond. III , 928 التى جرى تحديد تاريخها فى أول الأمر بعام ١٩٠/١٩١م [١٤] ، ثم جرى تصحيح هذا التاريخ الى القرن الثالث الميلادى [١٥] . وهذه الوثيقـــة عبارة عن تعريفه جمركية ورد فيها كلمة تشير الى القطن وهى :

L.1.ἔρεοξυλον.

أما الوثيقة الثانية فهى P. and . VII , 142 وتاريخهـا يعود للقرن الثانى الميلادى او حوالى عام ١٦٤/١٦٥م [١٦] ، وهى تحوى على مراجعة ἐπισκεψις [١٧] لمساحـات

----

(13)P.Lond. III,928; P.Iand.VII.142;SB.VI. 9025,9026;P.Mich.500;O.Douch.51

من الأراضى المزروعــة ، وكان القطن ضمن المحاصيل الواردة حيث نقـــــر أ فيها :

ἄλ(λον) τόπ(ου) γεωρ(ουμένου) ὑπὸ
τεναγ(ύμιος) υἱοῦ ἀλ(λον μητ(ρος)
· [...]ο( )², ε[ν] α ἐλ(ᾶινα) φυτ(ά)
γ κ(αὶ) φοί(νικες) κ(αὶ) ἐρεσέξυλ(α)
κ(αὶ) ἐρικ(ια) 4 κ(αὶ) ἕτερα
ἀκρόδ(ρυα) , ἡ ἐπίσκ(εψις) ὁμοίως·

اذ ا لم تكن الوثيقة الأولى تحدد اذ ا كان القطن من الصــــــاد رات أو الوارد ات ، فان الوثيقة الثانية تجزم بأنه كان من المحاصيل المعتـــاد زراعتهــا فى مصــر .

---

(14) Archiv. IVp. 554 .

(15) BL. Ip . 288 .

(16) Chron. d'Eg. 45-6 (1948) p.205 .

(17) Wallace, Taxation,pp.6-9,354,36;Grund. p . 177 .

اما الوثيقتان الثالثة والرابعة ، فقد قام الأستاذ ان : يوتــــــــــى Youtie ، وونتر Winter ، بنشرهما مـــــن مجموعه بردى مشجان ، الذى لم يكن قد تم نشره . (١٨)

البردية الأولى (١٩) منها عبارة عن خطاب يقول فيه مرسله " ارسل الى بأى طريقة ، وعلى أية حال ، عن طريق البريد ماقيمته ٢٠ دراخمة مـــن خيوط القطن المنسوجة ذ ات النوعة "الجيدة" أحرص على عدم النسيــــان (نسيان هذا) لأن اخوتك لم يعد لهم ملابس خارجية (مايلبسونه) منـــذ اهترأ ت ملابسهم القطنية وأنت تعلم أنهم فى حاجة الى ملابسهم حيث أنهـــم د ائما يعملون فى الحقول " .

---

(18) Winter, J.G.and Youtie, H.C. Cotton in Graeco- Roman Egypt. American journal of Philology 65 (1944),pp.249-258 .

(19) P.Mich.Inv.1649 = SB.VI.9025.and see , Chron . d'Eg. 45-46(1948)pp.204-205.

πά[ν]τῃ πάντως μοι πέμψῃς τῷ ἀγωγίῳ τούτῳ ἐριοξύλου δραχμὰς εἴκοσι σπουδαίας κρόκης. ἀλλ' ὅρα μὴ ἀμελήσῃς ἐπεὶ οἱ ἀδελφοί σου ἐπενδύτην οὐκ ἔχουσι ἐκτριβέντων τῶν ἐριοξύλων αὐτῶν, καὶ χρείαν ἔχουσι ὡς οἶδας καθὰ πάντοτε ἐν ἀγρῷ διατρείβουσι. ἄσπασαι τοὺς σοὺς πάντας κατ' ὄνομα. ἀσπάζεταί σε Χάρμος καὶ Ἡρακλείδης καὶ Τανεχώτης καὶ Σαραπίων καὶ ὁ μεικρὸς Σεύθης καὶ Ταῦρις καὶ Ἀπολλωνά-

وثائق البرديتين [20]، هي عبارة عن خطاب شخصي أيضا ، رد على خطاب آخر ، يقول فيه مرسله " لم أجد هذا القطع من النسيج القطني كما كنت أريده ، اذا أردت أن تنسج من أجلك أرسل الي خيوط مقولة والمقاسات " :

οὐχ εὗρον τὸν χιτῶνα τὸν ἐρεόξυλον ὡς ἤθελον. εἰ δὲ θέλεις ὑφανθῆναί σοι ἐνθάδε, πέμψον στήμονα καὶ τὰ μέτρα. φρόντισ τοῦ σίτου τοῦ πεμπομένου εἰς Ψῶβθιν καὶ τοῦ σίτου Χαιρᾶτος. μὴ ἀμελῇς περὶ πάντων. κόμισαι παρὰ Φατρέους Χαιρᾶτος σπυρίδιον ἐν ᾧ φοινίκων μέτρα τρία καὶ ῥόας ν̄ καὶ ἐπιστόλιον ὅρα οὖν μὴ ἀμελῇς αὐτοῦ.

---

(20) P.Mich. Inv. 1648 = SB.VI.9026 and see, Chron. d'Eg. 45-46 (1948)pp.205-206 .

تاريخ الخطابين المحتمل هو القرن الثانى الميلادى ، ونتبين منهما علـى أمرين ، أولهما معرفة المصريين القطن وغزلـة ونسجه ، وثانيهما شيـــوع استخدام القطن فى صناعـة الملابس . أما الخطاب الثانى فانه يضيف الـى ماسبق ، أنه يوجد أصناف متعددة من المنسوجات القطنية حتى أن الشخص كـان يتخير منها مايتلاءم معه.

والوثيقة الخامسة التى لدينا (٢١) عبارة عن خطاب شخصى من روللـيـوس Rullius الى أخيه جوليوس أبو لليناريوس Apollinarius يطلب فيه من أخيه أن " يرسل الأقطان البيضاء ، التى طلبها منه عندمـا كان معه ، الى ميئون ، لو أنها ناعمة ، حيث قال ـ عنها ـ عندما كـان معه ، دعنى أرسلها من روما ، وسوف يسلمهم ، لو أنك تريد أن أرسلهم".

---

(21) P.Mich . VIII. 500 .

ومن هذه الوثيقه نتبين أن لونه الأبيض ونعومة ملمس القطن كان يجذب الناس اليه ، ويبدو وجود صنف من الملابس القطنية كانت تشتهر به روما أو متوفر بها .

أما آخر الوثائق فهي قطعة شقافة تم العثور عليها في داخل أحد المعابد في الواحة الكبيرة ، وجرى تحديد تاريخها بالقرن الرابع الميلادى (٢٢) . تبدأ بعبارة " حساب القطن " ثم يليه أسماء خمس نساء أمام كل منهن مقدار على الوجه التالى :

Λόγ(ος) ἐρεοξύλα
Ταμοῦν Πασῦτε λίθ(οι) β
Τεσουῆρις λίθ(οι) β
Γυνὴ Εὐγένης λίθ(ος) α
Γυνὴ Εὐπρέπης λίθ(ος) α
Τρεμπαμόου ἀδ(ελφὴ) λίθ( ) .

---

(22) Cuvigny ,H.-Wagner,G. Les Ostraca Grecs de Douch (O.Douch) Le Caire 1985.N.51.

وناشرا هذه الوثيقة ربطا هذه النسوة بالغزل :

" Les cinq femmes de cette liste sont à n'en pas douter des fileuses de coton "

وبالتالي اعتبر المصطلح λίθος المذكور في النص وزنا مرتبطا بالنسيج وحده ، وقالا :

" Le terme λίθος peut désigner le poids du métier a tisser " (٢٣).

ولاندرى لماذا الربط ذلك بالنسيج وحده ، فقد يكن جامعات القطن من أشجاره ، مثلما يحدث حاليا ، يتم محاسبة النساء والأطفال الذين يجمعونه يوميا ، والمصطلح λίθος عبارة عن " ثقل أو معيار " من الحجر ، لكن ليس بالضرورة أيضا أن يكون هذا المعيار الحجري مرتبط بالنسيج وحده ، قد يرتبط بالقطن عموما عند جمعه ، وحلجه وغزله ونسجه (٢٤).

(23) Idem, p 32, and see, Wagner, G. les Oasis d' Egypte le Caire, p.29.
(24) Liddel and Scott S.V.

ونلاحظ فى هذه الوثائق الست أن القطن أتى تحت مسمى واحد هــــو

ἐρεόξυλον ، بينما استخدم الهنود فى لغتهم كلمة كارباســــــا

Carbasa (= Karapāsa) للتعبير عن القطن .

وقد انتقلـــت الى الفارسية وأصبحـــت كيرباس (Kirpas) وفــى

اللاتينية كاراباسوس (Carabasus) . وهى مفردات كانـــــــت

تعنى أصلا الكتان الناعم . أما كلمه قطن العربيه (Cotton او

Coton) المستخدمه حاليا ، فهى أتت أصلا من كلمـــــه

كتان Kuttan ثم تحرفت الى كوتو Kutu وفى السريانيـــة

أصبحت كتانا Keṭṭana ، ونقلت الى الاغريقية بكلمه خيتون

Chiton التى أصبحت تعنى جلبابا ، وفى العبرية كوتونـــــــت

Kuttonet وهى تعنى أيضا الكتان الناعم (٢٥) وبلينيوس الأكبر سمـــاه

---

(25) Forbes , op.cit.p.44; NN . 284 , 415;

[illegible]ct , op.cit . p. 570 .

فى مصر جـــوسبيـــــــوم Gossypium ، وقال أنه أحيانا يسمى اكسيلون Xylon ونسيجه يسمى أكسيلينـــا Xylina وقال ايضا أنه كان يعرف فى صور الفينيقية باسم Gossympines (٢٦) وهى أصل التسمية العلمية Gossypium المستخدمه حتىالآن ٠

---

(26) Nat . Hist. XII , 21, XIX , 14 .